مجلة المنهل-المجلد: 08، العدد: 02 (2022م)-ص ص 587 - 612
ISSN :2437 - 1068 ●EISSN8392-2710

التجْرُبةُ الشّعْريَّةُ عند فُقَهَاءِ الشُّعَرَاءِ المُعَاصرين
ـ الشَّيخ أحمد سُحْنُون الجزائري أنمُوذجاً ـ

The poetic experience of contemporary poets Alfokkaha
- Sheikh Ahmed Sahnoun Al-Jazaery as a model –

محمد ميلودي(*)
مخبر فضاء الصحراء في مدونة السرد الجزائري
جامعة الشهيد أحمد دراية ـ أدرار ـ (الجزائر)
moh.miloudi@univ-adrar.edu.dz

السعيد نواصر
جامعة الشهيد أحمد دراية
أدرار - (الجزائر)
nouacersaid@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2022/07/31	2022/12/16	2023/01/13

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى معرفة التجربة الشعرية عند فقهاء الشعراء المعاصرين، وبيان ثرائها وتكاملها الفني والجمالي، وللوصول إلى ذلك ركّزنا البحث في تجربة الشيخ أحمد سحنون الجزائري كأنموذج بارز لشعر الفقهاء المعاصرين.

تحدثنا في البداية عن التجربة الشعرية، ثم سلطنا الضوء على التجربة الشعرية عند الفقهاء، لنخصّص البحث في تجارب شعراء الفقهاء المعاصرين، من خلال إبراز أهم الأغراض الشعرية التي ظهرت فيها تجاربهم الشعرية، ولعدم إمكانية استيعاب المقال لذلك خصّصنا البحث في تجربة الشيخ أحمد سحنون الجزائري كمثال للشاعر الفقيه في تاريخنا المعاصر، لنبيّن في خاتمة المقال أهم النتائج المتوصّل إليها.

الكلمات المفتاحية: التجربة؛ الشعرية؛ الفقهاء؛ المعاصرين؛ سحنون.

Abstract :

This article aims to know the poetic experience of contemporary poets jurists, and to show its richness and artistic and aesthetic integration, and to reach that we focused research on the experience of Sheikh Ahmed Sahnoun Al-Jazaery as a prominent model for the poetry of contemporary jurists.

We talked at the beginning about the poetic experience, then we highlighted the poetic experience of the jurists, to dedicate the research in the experiences of contemporary jurists poets, by highlighting the most important poetic purposes in which their poetic experiences appeared, and for the inability to absorb the article, so we devoted research to the experience of Sheikh Ahmed Sahnoun Al-Jazaery as an example of the poet jurist in our contemporary history, to show in the conclusion of the article the most important results reached.

Keywords: experience; poetics; jurists; contemporaries; Sahnoun.

(*) المؤلف المراسل.

1. مقدمة:

يُعتبر شعر الفقهاء من الموضوعات التي لم تحض بدراسات معمّقة في الأدب العربي؛ ومع وجود بعض المحاولات إلا أنها لم تغص في جوانب كثيرة من هذا الشعر.

التجربة الشعرية من بين الجوانب المهمة فيه؛ فلقد طرق الفقهاء الشعراء جُلّ أغراض الشعر، وعبّروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم النفسية والاجتماعية، والإنسانية، وعاشوا مواقف مختلفة؛ فانعكس ذلك على تجاربهم الشعرية، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن التجربة الشعرية عند شعراء الفقهاء اشتملت على جميع مقوّمات العمل الفني والإبداعي؛ وما تميزت به من كثافة شعريّة، وتكامل فنّي وجمالي، ولذلك سنحاول من خلال هذا المقال الكشف عن خبايا التجربة الشعرية عند الفقهاء، والإجابة عن بعض التساؤلات ومنها:

- ما هي آراء النقاد في التجربة الشعرية؟
- ما مميزات التجربة الشعرية عند شعراء الفقهاء؟
- هل تميزت التجربة الشعرية لشعراء الفقهاء المعاصرين عن غيرهم؟
- ما هي أهم الأغراض الشعرية التي برزت فيها التجربة الشعرية لشعراء الفقهاء المعاصرين؟
- هل وصلت التجربة الشعرية لشعراء الفقهاء المعاصرين التكامل الفني والجمالي؟
- ما مدى صدق شعراء الفقهاء المعاصرين لتجاربهم الشعرية؟

لصعوبة الوصول إلى ذلك، ولتشعّب الموضوع واتّساعه خصّصنا الدّراسة في شعر الفقهاء المعاصرين، مع إبراز نموذج منهم؛ وهو الشيخ أحمد سحنون الجزائري، وذلك لما تميّز به من كثافة شعرية، وما عاشه من مواقف كثيرة، اصطبغت بها تجربته الشعرية؛ يظهر ذلك من خلال ما خلّفه من موروث شعري غزير.

اعتمدنا في هذا المقال على المنهج التاريخي؛ وذلك في التعريف بشعراء الفقهاء، وتتبع تراجمهم وسيرهم. وفي تحليلنا للأبيات الشعرية اعتمدنا على آليات المنهج الوصفي التحليلي مع الاستعانة ببعض المناهج النقدية الأخرى كالمنهج الإحصائي، والسيميائي.

جاء المقال في أربعة محاور رئيسية؛ حاولنا في المحور الأول إيجاد تعريف للتجربة الشعرية، وذلك من خلال أراء النقاد ورؤيتهم لها، ثم بيّنا في المحور الثاني التجربة الشعرية عند شعراء الفقهاء؛ فاستعرضنا أهم الأغراض التي برزت فيها تجاربهم، لنخصص الحديث في المحور الثالث عن التجربة الشعرية عند شعراء الفقهاء المعاصرين، من خلال استعراض بعض الأبيات الشعرية لعدد منهم،

لنتحدث في المحور الرابع عن التجربة الشعرية عند الشيخ أحمد سحنون الجزائري، وروافد تجربته وما تميّزت به، وأهم الأغراض الشعرية التي تكشف لنا عمقَ تجربته وتكاملها الفني والجمالي، لنستعرض في الخاتمة أهم النتائج التي توصلنا إليها.

2. تعريف التجربة الشعرية:

في البداية نحاول إيجاد تعريف للتجربة الشعرية، وإن كان من الصعب تحديد مفهوم محدد لها؛ وذلك لأن التجربة الشعرية مصطلح شائك ومتشابك، لكونه تتداخل فيه ذات الشاعر وما ينبع عنها من أحاسيس ومشاعر، ويرتبط بالرؤية الشعرية والجمالية، والفكرية، وتفاعل ذات الشاعر بالمظهر الخارجي؛ كل ذلك ينعكس على تجربته الشعرية؛ فـ"عالم الشاعر الداخلي هذا عالم واسع، فهو يشمل الحالة الذهنية لديه، كما يشمل المشاعر والأفكار، وطاقات الحدس والإدراك. وقوة الخيال الخالق هي البوقة التي تنصهر فيها كل عناصر هذا العالم من ذهنية وشعورية، وهذه القوة هي التي تعدل من هذه المشاعر، وتنظمها وتجمع أشتاتها، وتضعها في النهاية في قالب متلاحم متجانس هو العمل الشعري" (الربيعي، 1968م، صفحة 92).

التجربة الشعرية بهذا المعنى هي "حدث وجداني أو عاطفي، حَدَثٌ ينبع من نفس صاحبه ومن عقله ومن كل حواسه ودخائله النفسية والفكرية الظاهرة والباطنة" (ضيف، 2004م، صفحة 138)؛ فهي تعبير عن عالم الشاعر الداخلي بجميع جزئياته وتشكلاته وتفاعلاته مع العالم الخارجي؛ والشعر ما هو إلا "تعبير عن العالم الداخلي، أو لنقل عن العالم الخارجي كما ينعكس في نفس الشاعر، وذلك بعد أن تنظمه قوة الخيال الخالق عنده تنظيما فنيا" (الربيعي، 1968م، صفحة 92)؛ فالتجربة الشعرية إذن تجربة تتفاعل فيها ذات الشاعر مع عالمه الخارجي حدّ التماهي، فتتبلور الفكرة في الشعور والإحساس، لتنتج عملية فنية تعكس جميع هذه الأحاسيس والمشاعر.

التجربة الشعرية كلٌّ متكامل، متّحدة في جميع جزئياتها، وكل جزء فيها يرتبط بالآخر، "وبين الأجزاء جميعها وحدة تجعل منها كلاّ واحداً أو تجربة واحدة"، لتتبلور وفق خط متواصل من بدئها إلى أن تتشكل عملا فنيا، ولا يمكن للشاعر أن يتوقف في أثنائها حتى يصل إلى تمامها، وهذه هي التجربة الكاملة؛ تجربة "أخذت زمنا طويلا حدثت فيه، وتألفت في أثنائه من عناصر عملية صحبتها مشاعر وأحاسيس وتأملات فكرية مختلفة، ولكل تجربة منها بدء واضح ونهاية واضحة، ولم يحدث توقف في أثنائها حال دون تمامها، بل بلغنا نمضي فيها من جزء إلى جزء حتى بلغنا نهايتها" (ضيف، 2004م، الصفحات 139-140).

التجربة الشعرية – بجميع جزئياتها– لا يمكن أن تسير وفق هذا الخط المتواصل ما لم تكن لها قوة

تدفعها، ومنظِّما يقوم يجمع شتاتها، وهذا المُنظّم هو الفكر؛ فالفكر هو الذي يقوم بعملية التنظيم والتنسيق بين جميع عناصر التجربة الشعرية، ولولا الفكر المنَسِّق لنشأت التجربة مشوّهة ولم تنتج لنا عملا فنيا. ولا يعني هذا أن الفكر يقوم بإلغاء ذاتية الشاعر وعواطفه ويسيطر على أحاسيسه ومشاعره، وإنما يتمازج فيها مع العاطفة؛ فالتجربة الشعرية ليست تجربة "عاطفية فقط ولا عقلية فقط، بل هي عاطفية عقلية معا، تعمل فيها النفس ويعمل فيها العقل، وتعمل فيها خبرة الشاعر بوسائله اللغوية والخيالية والموسيقية. ويمتزج هذا العمل كله وينصهر ويتوحد في قصيدة، لا تصور قصيدة سواه" (ضيف، 2004م، صفحة 139).

وإذا كانت التجربة الشعرية تجربة ذاتية؛ فهذا لا يعنى أن الشاعر إنسان منعزل عن واقعه، ولا يتفاعل مع مجتمعه وما يعيشه من آلام وآمال؛ "فالشعر ليس غناء تجريديا، بل إن ثمة ضرورة ملحة لارتباطه بمواقف معيشة محددة تجعل للرؤية الفنية التي يصدر عنها طعما خاصا ونكهة مميزة" (حسين قاسم، صفحة هامش 17)، ولذلك ترتبط التجربة الشعرية بما يعيشه الشاعر من مواقف في واقعه، فتتشكل في "لا شعوره مجموعة من الأحاسيس التي تظهر رائحتها ويبدو طعمها في نتاج الشاعر" (حسين قاسم، صفحة 17)؛ فتنشأ التجربة الفنية معبرة عن ذات الشاعر – سواء الأنا أو الكل– ومشاعره وأحاسيسه، وبذلك تكون تجربة حيّة لها أثرها الفني والجمالي.

التجربة الشعرية وإن كانت مرتبطة بالواقع بطريقة ما؛ فإنها لا تتوقف عنده، بل تتعداه إلى أفق أرحب، لتصبح تجربة إنسانية؛ فتنشأ العملية الفنية عن طريق "العلاقة بين الإنسان والعالم" (مكليش، 1963، صفحة 16)؛ فإذا كانت التجربة الشعرية تجربة ذاتية؛ فإن الشاعر يتعمق في ذاته كإنسان، فيتجاوز ذلك لتصبح تجربة معبرة عن الإنسان بكل ما يحمله من المعاني الإنسانية؛ فالشاعر يعيش بتجربته "الإنسانية كلها في عمومها منذ الأزل، إنه بتركيبته الخارجية والداخلية يعد مجموع ما حققته البشرية خلال رحلتها مع الزمان والمكان" (الورقي، صفحة 75)، وهكذا تتماهى ذاتية الشاعر في تجربته الشعرية مع الذات الإنسانية؛ فـ"تنتهي الذاتية في الأثر الفني إلى محو الفروق والتضاد بين الأفراد، لأن استكشاف الإنسان لذاته إنما هو قبل كل شيء ارتياد واكتشاف للذات الإنسانية، أو قل للذات الكامنة في كل فرد منّا" (العشماوي، 1979م، صفحة 06)، وبذلك يكون نتاج التجربة عملا فنيا متكاملا معبّرا عن ذات الشاعر وأحاسيسه ومشاعره الذاتية والإنسانية.

فالتجربة الشعرية إذن هي عالم متشابك ومتداخل، بجميع جزئياتها ومحطاتها، تنشأ من الذات الشاعرة لتعبّر عن مشاعرها وأحاسيسها، من خلال ارتباط الذات بعالمها الداخلي والخارجي؛ فتتشاكل جميع جزئياتها حدّ الانصهار؛ ويقوم الفكر بعملية التنسيق والتنظيم، وبذلك يكون العمل الفني عملا متكاملا،

متصفا بصفات الخلق الجمالي الخالد.

3. الفقهاء والتجربة الشعرية:

التجربة الشعرية عند الفقهاء تجربة ثريّة؛ يظهر ذلك جلّيا من خلال ما خلّفوه من نتاجٍ شعريّ، وما طرقوه من مواضيع متعددة؛ فأدب الفقهاء "باب واسع يتضمن فنونا وأغراضا مختلفة، بعضها مما يقل نظيره في أدب غيرهم؛ فهو يشمل على شعر وجداني من الطبقة الرفيعة يعبّر عن أعمق المشاعر الإنسانية، وأرقّ العواطف القلبية، ومنه شعر فلسفي يتناول مطالب النفس العليا ويتحدّث عن الروح وعالمها الفسيح، ومشكلة الوجود والحقيقة الأزليّة وما إلى ذلك" (كنون، أدب الفقهاء، 1435هـ – 2014م، صفحة 15)، وهذا المعنى هو حقيقة التجربة الشعرية بجميع جزئياتها وتشكلاتها؛ فتعبّر عن ذات الشاعر ووجدانه وعواطفه، وعن الذات الإنسانية، وفي شعر الفقهاء الكثير من هذه التجارب.

تتميز التجربة الشعرية عند الفقهاء "بميزتين إحداهما خاصة بهم تطبع أسلوبهم الأدبي وتشوبه بظاهرة فقهيّة وثانيتهما متكاملة مع الآخرين يلتقون فيها معهم من حيث رصانة الأسلوب وجمال الصّياغة الفنّيّة وفنّيّة التعبير" (مرتاض، 1414هـ – 1994م، صفحة 04)؛ فأمّا الظاهرة الفقهية فلكونهم تميّزوا بالدرجة الأولى بعلم الفقه فغلب عليهم المصطلح، وقد تظهر بعض هذه المصطلحات في أشعارهم؛ من ذلك ما روى ابن خلدون عن أبي القاسم ابن رضوان أنه ذاكر يوما أبا العباس أحمد بن شعيب الجزنّائي؛ فأنشده بيتا لأبي الفضل بن النحوي ولم ينسبه له وهو: (لَمْ أَدْرِ حِينَ وَقَفْتُ بِالْأَطْلَالِ مَا الفَرْقُ بَيْنَ جَدِيدِهَا وَالبَالِي)؛ فقال له الجزنّائي على البديهة: هذا شعر فقيه؛ فقال له ومن أين لك ذلك قال: من قوله ما الفرقُ إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب (كنون، أدب الفقهاء، 1435هـ – 2014م، صفحة 07) وليس ذلك ينقص من شعرهم، ولا من تجربتهم الشعرية، وإنما العبرة بصدق التجربة، وتشكّلها في ذات الشاعر عبر مراحلها إلى أن تُخرِج لنا عملا فنيّا متكاملا يعكس هذه التجربة، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى تعكس الظاهرة الفقهية مكانة الشاعر الفقيه في التاريخ الإسلامي والمكانة العالية التي يحظى بها باعتباره مرجعا في عديد القضايا الدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها (بلمسيل، 2021م)، ولا شك أن هذه الأهميّة غلّبت وصف الفقيه وإن كان جامعا لبعض العلوم الأخرى، وبذلك عُرِفوا بالفقه، وإن كانت تجاربهم الشعرية تعبر عن شعر "أرق من النسيم إذا سرى وأصفى من شعاع القمر وأعذب من ماء الوصال، وهم كانوا أئمة الدين وأعلام الهدى" (الطنطاوي، 1988م، صفحة 09)، ولذلك يرى الشيخ عبد الله كنون أنه لا مناقضة بين الفقه والأدب والعلم والشعر، وأن العبرة بمقدار التمكّن من المادة الأدبية والملَكة القوية والذوق المهذَّب وإن صدر ذلك من فقيه (كنون، أدب الفقهاء، 1435هـ – 2014م)، وهو يشير إلى أن الأمر في ذلك يعود إلى التجربة الشعرية، وما تنتجه من عمل فني.

مما تتميز به التجربة الشعرية عند الفقهاء؛ تأثرها بالمنهج القرآني، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وسير الصحابة والتابعين، مما "غلب عليها إحساس أدبي شفيف" (ناعسة، 1399هـ، 1997م، صفحة 05)؛ فالقرآن الكريم من أهم روافد شعر الفقهاء؛ فقد "تأثروا به ودُهشوا من أساليبه وبيانه الذي يعْلق بأسماعهم، ويؤثر في نفوسهم، فهو أبلغ كتاب عرفته العربية، إذ أن الشعراء تأثروا به واستمدوا منه رؤى شاملة للحياة تصوّر قضاياها" (بلمسيل، 2021م، صفحة 07)، والمتتبع لأشعار الفقهاء يجد العديد من الألفاظ القرآنية مبثوثة في قصائدهم، نذكر على سبيل المثال بيتين لابن المبارك يقول فيهما: (ناعسة، 1399هـ، 1997م، صفحة 07)

وَالْآدَمِيُّ بِهَذَا الْكَسْبِ مُرْتَهَنٌ لَـهُ رَقِيبٌ عَلَى الْأَسْرَارِ مُطَّلِـعُ

حَتّى يُوَافِيهِ يَوْمَ الجَمْعِ مُنْفَرِدًا وَخَصْمُهُ الجِلْدُ وَالْأَبْصَارُ وَالسَّمْعُ

فكثير من الألفاظ التي استخدمها تُحيل إلى معاني قرآنية(الكسب، رقيب الأسرار، مطلع الجمع، الجلد، الأبصار، السمع). وكذلك الحال في استجلابهم المعاني من الحديث النبوي، وقد أثمر ذلك غرضا شعريا خاصا وهو غرض المعاني الإسلامية (حجازي، 1410هـ،1990م)، وهي ظاهرة ممتدة من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى تاريخنا المعاصر.

بتأثّر التجربة الشعرية عند الفقهاء بآيات الذكر الحكيم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته، وسيرة الصحابة والعلماء والفقهاء؛ تميزت تجربتهم ببعض المواضيع التي لم تكثر عند غيرهم؛ فأغراض الأخلاق والآداب مما تميّز به شعر الفقهاء عن غيرهم، يقول الشيخ عبد الله كنون: "أما الأخلاق والآداب، شرعية وسياسية؛ فأدب الفقهاء هو منبعها الذي لا ينضب ومنجمها الذي يحتوي على ثروة طائلة لا نفاد لها" (كنون، أدب الفقهاء، 1435هـ – 2014م، صفحة 15)، وهذه الميزة طغت على أغلب الأغراض الشعرية التي طرقوها، فإذا مدحوا ففي الغالب لم يمدحوا تزلّفا أو لطمعٍ دنيوي، وكثير منه في مدح النبيّ صلى الله عليه وسلم، وإذا هجوا فغالبا ما كان هجاؤهم بصيغة الغائب، وكذلك الحال في غرض الغزل؛ وهكذا في جميع الأغراض التي طرقوها، وعلى العموم فإن أغلب تجاربهم الشعرية جنحت إلى الالتزام الشعري والدعوة إلى الزهد في الدنيا، والابتعاد عن الشهوات والملذات، ومَرَدّ ذلك إلى أن غاية الشاعر الفقيه هي إيصال الدين إلى مستويات التفكير الجمعي، ومع ذلك فإن الكثير من تجاربهم خرجت عن حدود الالتزام؛ فصرّح الكثير من الشعراء عن مشاعرهم وأحاسيسهم في فن الغزل الحسّي (الموسوي، 2017م، صفحة 18)، وإن كان ذلك ليس بالكثير في شعرهم، ومع ذلك فهو يكشف لنا أن التجربة

الشعرية عند الفقهاء تجربة أظهرت عواطف وأحاسيس ومشاعر فيّاضة، وتتمتع بكل مكوّنات التجربة المتكاملة؛ من إبداع، وصياغة وصدق وعاطفة ... وغيرها من مكونات نجاح العملية الجمالية في الإبداع الفني.

يمكن أن نخلص إلى أن التجربة الشعرية عند الفقهاء – في غالبها- تجربة متكاملة، عكست ذات الشاعر الفقيه، وما يعيشه من تجارب وجدانية، واجتماعية وإنسانية، وعبّرت بصدق عن مشاعرهم وأحاسيسهم، وهو ما ظهر في البناء الجمالي والفني لقصائدهم.

4. التجربة الشعرية عند شعراء الفقهاء المعاصرين:

وهي تجربة تعكس امتداد ظاهرة الشعراء الفقهاء من العصر النبوي وصولا إلى تاريخنا المعاصر، وكغيرهم من الشعراء طرق فقهاء الشعراء المعاصرين جلّ أغراض الشعر، وعبّروا عن تجاربهم الذاتية، ومواقفهم الإنسانية، وباحوا بمشاعرهم وأحاسيسهم. فهذا الشيخ القرضاوي(1926-2022م) يكشف عن مناجاته لليلةَ القدر وقد مرّت عليه وهو في غياهب السجن، فعاش التجربة وعبّر لناعن هذا الموقف؛ يقول (القرضاوي، 1405هـ، صفحة 38):

عَشِقْتُهَا فَاسْتَرَقَتْ قَلْبِيَ الْعَانِي ... فَقُمْتُ أَعْزِفُ فِيهَا عَذْبَ أَلْحَانِي
سَمَّوْهُ شِعْرًا وَإِنِّي لَا أَرَاهُ سِوَى ... آهَاتِ قَلْبٍ وَاحْسَاسَاتِ وِجْدَانِي
يَا لَيْلَةً زَانَهَا رَبِّي وَشَرَّفَهَا ... تَنْزِيلُهُ فِي دُجَاهَا نُورَ قُرْآنِ

فالشاعر يكشف عن عشقه لهذه الليلة، فترك العنان لمعاني الحب التي غمرت قلبه؛ فباحت بأعذب الألحان، ولم يجد الشاعر من سبيل لبثّ هذه المشاعر والأحاسيس والآهات إلا الشعر؛ فهو عنده إحساس ووجدان.

عندما ترتبط هذه المشاعر بتجربة السجن وما فيه من ظلم وحرمان تتعالى آهات الشاعر؛ فلم يجد إلا ليلة القدر ليشكو إليها حزنه وألمه، فيخاطبها بقوله (القرضاوي، 1405هـ، صفحة 38):

يَا لَيْلَةَ السِّلْمِ وَالإِسْلَامِ مَعْذِرَةً ... فَالسِّلْمُ فِي مِصْرَ وَالإِسْلَامِ لَفْظَانِ
أَيْنَ السَّلَامُ؟ أَرُونِي أَيْنَ مَوْضِعَهُ ... قَدْ ضَاعَ ضَيْعَةَ يُتْمٍ بَيْنَ خَوَّانِ
أَيْنَ الدَّسَاتِيرُ، فَانْظُرْهَا مُعَلَّقَةً ... مِثْلَ التَّمَائِمِ فِي أَحْضَانِ صِبْيَانِ
أَيْنَ الحُقُوقُ وَلَمْ نَلْمَحْ لَهَا صُورًا ... إلاَّ سِيَاطًا كَأَذْنَابٍ لِثِيرانِ

يكشف الشاعر أن المعاني التي تحملها ليلة القدر (السلام ، الإسلام) وما فيها من الرحمة والطمأنينة والسكينة قد أصبحت غائبة؛ فلا وجود لهذه المعاني في حياة السجن، وأضحت مجرّد شعارات لا حقيقة

لها في الواقع، ولمرارة ذلك لا يجد الشاعر إلا مناجاة ربه سبحانه ليشكو إليه الظلم الذي يعانيه (القرضاوي، 1405هـ، صفحة 39):

يَا رَبِّ إِنَّ الطُّغَاةَ اسْتَكْبَرُوا وَبَغَوْا ... بَغْيَ الذِّئَابِ عَلَى قُطْعَانِ حِمْلَانِ
يَا رَبِّ كَمْ يُوسُفَ فِينَا نَقِيُّ يَدٍ ... دَانُوهُ بِالسِّجْنِ وَالقَاضِي هُوَ الجَانِي
يَا رَبِّ كَمْ مِن صَبِيٍّ صَفَّدُوا فَمَضَى ... يَبْكِي كَضِفْدَعَةٍ فِي نَابِ ثُعْبَانِ
يَا رَبِّ كَمْ أُسْرَةٍ بَاتَتْ مُشَرَّدَةً ... تَشْكُو تَجَبُّرَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانِ
يَا رَبِّ رُحْمَاكَ، أَنْجِزْ مَا وَعَدْتَ بِهِ ... وَانْصُرْ فَنَصْرُكَ مِنْ أَهْلِ الهُدَى دَانِ

فالشاعر يناجي ربه ظلمَ واستكبار البغاة، وهو يعكس حالة وجدانية عاشها الشاعر وذاق مرارتها، وهو يعبّر عن موقف إنساني لكل من عاش نفس تجربته(كم من صبي، كم من أسرة).

إن هذه الأبيات تعكس تجربة شاعر فقيه؛ فالشيخ القرضاوي "شاعر عبقري البيان، صادق العاطفة والإحساس... ذو خيال خصب، وموهبة عميقة، وأداء جميل، وتوفيق كامل ومؤثّر في رسم الصور والمشاعر... تبدو في شعره سلاسة العرض، وفصاحة الأسلوب، وطول النفس وتتجلّى فيه روح صاحبه: رجل العلم والفكر والدعوة" (القرضاوي، 1405هـ، الصفحات 22- 23).

وهذا الشيخ عبد الله كنون (1908-1989م)[1] عاش موقف الاستعمار ومعاناة أبناء الأمّة من الظلم، وفقدان الحريّة، فترك القلب ليعبّر عن هذه التجربة التي عاشها، ويبدأ بلفظة تدل عن ألم وجداني عميق (ويلي)، يقول (كنون ، لوحات شعرية، 1966م، صفحة 08):

وَيْلِي وَوَيْلُ جَمَاعَةَ الأَحْرَارِ ... مَاذَا يُلَاقِي الشَّعْبُ مِنْ أَضْرَارِ
وَيْلِي وَوَيْلُ المُخْلِصِينَ جَمِيعُهُمْ ... يُوذَونَ بِالإِخْلَاصِ لِلْأَشْرَارِ

إن الشاعر يعبر عما يحس به من ألم؛ فقد كرر كلمتي (ويلي، ويل) مرتين وذلك للدلالة على حجم الألم الذي يشعر به، ومرارة الألم تزداد حينما يرى الخنوع للظلم، فيخاطب قومه (كنون ، لوحات شعرية، 1966م، صفحة 08):

يَا قَوْمِ مَا هَذَا التَّخَاذُلُ بَيْنَكُمْ ... فِي حِينِ أَنْتُمْ بِضْعَةُ الأَنْصَارِ
اللهَ فِي شَعْبٍ وَشِيكٍ هَلْكُهُ ... وَبَقَاءُهُ أَثَرًا مِنَ الْآثَارِ
بَيْنَا العِدَا وَهُمُ الَّذِينَ عَلِمْتُمُ ... يَسْقُونَكُمْ كَأْسَيْ رَدَى وَدَمَارِ
تَلْفُونَ أَنْتُمْ مُوقِعِينَ بِبَعْضِكُمْ ... مُتَبَادِرِينَ الشَّرَّ كُلَّ بَدَارِ

تكشف الأبيات عن إحساس وجداني، يعكس شدة ألم الشاعر، وجرحه الغائر في أعماق قلبه حينما يرى الخضوع للمستعمر، فينادي قومه (يا قوم)، وهي تدل على مشاعر وجدانية عميقة في ذات الشاعر،

وتظهر معاني الرحمة والعطف على قومه، وهو الفقيه المتأثّر بآي الذكر الحكيم، متمثّلا نداء الرجل المؤمن من قوم فرعون، قال سبحانه على لسانه: [وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُم إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ](غافر: الآية 41)، ويُذكّرهم بماضيهم التليد، وأنهم بقيّة الأنصار، ويبدي أسفه وحزنه على تشتّت قومه، فجاء بكلمة لها أثر عميق في وجدانه (موقعين)، والوقيعة لا تكون إلا من العدو، فكيف يفعل ذلك أبناء قومه ببعضهم!، وهو ما زاد من حزنه وأساه، يقول (كنون ، لوحات شعرية، 1966م، صفحة 09):

رَبَّـاهُ مَـا هَـذَا الَّـذِي أَوْدَى بِنَـا وَاقْـتَـادَنَـا لِـمَـوَاطِـنِ الْإِعْـصَـارِ
حَـتَّـى بَـقِـينَـا لَا نُـحَـرِّكُ سَاكِنـاً نَـاوِي إِلَـى الْأَجْـدَاثِ وَالْأَحْـجَـارِ
فَـتَـحَـكَّـمَ الأَعْـدَاءُ فِـي أَرْقَـابِـنَـا وَتَـدَاوَلَـتْـنَـا أَيْـدِي الِاسْـتِـعْـمَـارِ

تزداد الحالة الشعورية للشاعر مع اشتداد الموقف؛ فاستعمل كلمة (ربّاه) وما لها من دلالات وجدانية؛ فظهرت من خلالها حالته النفسية حينما رأى قومه بين أيدي الاستعمار، وبذكره لهذه الكلمة وما تحمله من دلالات في وجدانه بلغت الحالة الشعورية أقصاها، فلم يجد إلا الآهات التي تخرج من أعماق القلب والوجدان، فتأوّه قائلا (كنون ، لوحات شعرية، 1966م، صفحة 10):

ءَاهٍ! وَلَـيْـسَ تَـأَوُّهِـي بِـمُـخَـفِّـفٍ مِـنْ وَجْـدِ قَـلْـبِ السَّـيِّـئِ التِّـذْكَارِ
ءَاهٍ لِـشَـعْـبٍ خَـانَـهُ أَبْـنَـاؤُهُ فَـدَهَـاهُ مِـنْـهُـمْ أَعْـظَـمَ الْأَخْـطَـارِ!

تأوّه الشاعر، ثم غشيته حالة من الصمت، ثم نطق والتأوّه لا يزال يسيطر على مشاعره وأحاسيسه، ليؤكد أن التأوه ليس بمخفف عنه(وليس تأوّهي بمخفف) عن أسى القلب وحزنه وألمه. ثم يتساءل الشاعر، وكأنه عاش حالة من غياب العقل جرّاء طغيان المشاعر والعواطف، فتأتي لفظة (كيف السبيل)، للدلالة على عودة اشتغال الفكر، يقول (كنون ، لوحات شعرية، 1966م، صفحة 10):

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى النُّهُوضِ وَمَا أَرَى فِي الشَّعْبِ مِنْ كُفْءٍ سِوَى الْإِغْمَارِ!
ذَهَبَتْ بِـقُـوَّتِـنَـا الـرِّيَـاحُ عَشِيَّةً لَـمَّـا تَـرَكْـنَـا الـسَّـيْـفَ لِـلْـمِـزْمَـارِ
وَغَـدَا الـعَـفَـاءُ عَـلَـى مَعَالِمِ مَجْدِنَا حِينَ اخْتَصْصْنَا النَّفْسَ بِالإِيثَارِ
فَـرَأَيْـتَـنَـا وَالـجَـهْـلُ أَثْـقَـلَ ظَـهْـرَنَـا كَـالـعَـيْـرِ يُـرْبَـطُ فِـي فِـنَـاءِ الـدَّارِ

مع محاولة الشاعر السيطرة على مشاعره ببحثه عن أسباب الفشل والهوان الذي أصاب أمته؛ إلا أنه لم يستطع كتمان مشاعره وأحاسيسه فظهرت في كثير من الكلمات(الأغمار، ذهبت بقوتنا، معالم مجدنا، النفس بالإيثار، أثقل ظهرنا) وهي كلها تدل على معاني الأسى والحزن في نفس الشاعر. ثم يجدد الشاعر دعوته إلى قومه مستعملا ياء النداء فيقول (كنون ، لوحات شعرية، 1966م، صفحة 10):

يَـا لِلـرِّجَـالِ أَلَا شُـعُـورٌ بَـاعِـثٌ بِـالْفَـرْدِ مِـنْكُـمْ لِاجْتِنَـابِ الـعَـارِ
هَـاذِي شَـبِـيـبَـتُـكُـمْ تَنَـادِي جَمْعَكُمْ هَـلَّا أَجَبْتُـمْ صَـوْتَـهَـا الإِنْـذَارِي
فِـي أَيِّ يَـوْمٍ تَـكْـبَـحُـونَ جِمَاحَكُمْ وَتُـجَـنِّـبُـونَ الـنَّـفْـسَ كُـلَّ ضِـرَارِ

وهي دعوة لقومه للنهوض والانعتاق من براثن ظلم المستعمر، وهذا ما يتمناه الشاعر؛ فيخاطب النهوض لما يحمله من مشاعر في وجدانه كما يخاطب الإنسان العاقل بكلمات تكشف مدى صدق المشاعر والإخلاص لتجربته الشعرية، يقول (كنون ، لوحات شعرية، 1966م، صفحة 10):

يَـوْمَ الـنُّـهُـوضِ! مَـتَـى أَرَاكَ بَأُفْقِنَا مُـتَـبَـرِّجـاً كَـتَـبَـرُّجِ الأَقْـمَـارِ
إِنِّـي إِلَـيْـكَ لَـشَـائِـقٌ مُـتَـطَـلِّـعٌ أَرْجُـوكَ بِـالْآصَـالِ وَالْأَبْـكَـارِ
عَجِّلْ ! فَأَنْتَ مُنَى النُّفُوسِ وَأَنْسُهَا بِـكَ قَـدْ يَـهِـمُّ الـيَـأْسُ بِـالْإِدْبَارِ

إن هذه الأبيات للشيخ عبد الله كنون تعكس صدق التجربة الشعرية عند الشاعر الفقيه، وتنبئ عن مقدرة فنيّة وإبداع جمالي متميّز، "فهي تجارب مُعاشَة وعواطف جيّاشة للشاعر، ومن أحق منه بشدِّ وترها وإطلاق نغماته الحبيسة، دون أن يخالطها صوت مُهمَل لنشوزه وعدم انسجامه" (كنون ، لوحات شعرية، 1966م، صفحة 08).

هذه التجربة الشعرية التي عاشها الشيخ كنون وحرّكت وجدانه، وجيّشت مشاعره، نجدها عند الشيخ المستاوي(1923-1985م)[2] العالم والفقيه التونسي الذي عاش حياته في خدمة قضايا الأمة والدفاع عنها؛ فارتبط بآلامها وآمالها، واتخذ من القلم سلاحا، ومن الشعر بيانا، وقد آلم الشاعر وحزّ في نفسه ما تعيشه الأمة من هوان، فيشكو إلى الله حزنه وألمه، يقول (الجدع و جرّار، 1403هـ- 1983م، صفحة 151):

إِلَـى الله أَشْـكُـو وَمَـا غَـيْـرهُ يُـرْجَـى لِـمَـا مَسَّـنَـا مِـنْ هَوَانْ
تَـمَـزَّقَ بَـيْـنَ الـوَرَى شَـمْـلُـنَـا وَغَـاضَـتْ يَـنَـابِـيـعُـنَـا مِـنْ زَمَـانْ
وَدِيـسَـتْ قَـدَاسَـاتُـنَـا جَـهْـرَةً فَـهَـلْ ثَـارَ يَـا قَـوْمِ غَـيْـرُ اللِّسَانْ؟!

إن معاني الحزن والأسى بادية من خلال استعمال الشاعر للألفاظ التي لها دلالات وجدانية عميقة(أشكو، هوان، تمزّق، غاضت، ديست)، وهي كلها كلمات تعكس أحاسيس الشاعر ومشاعره، وصدق تجربته، وهو الذي يشكو هوان أمته، وتمزق أمرها، وضياع مقدّساتها، فلم ير من قومه إلا كلاما باللسان، وصياغة بيانات التنديد التي لا تسمن ولا تغن من جوع، وهو غاية أمرهم، يقول (الجدع و جرّار، 1403هـ- 1983م، صفحة 151):

إِذَا مَـا اجْـتَـمَـعْـنَـا عَـلَـى مُـعْـضِـلٍ لِـنَـدْرَسَـهُ بَـيْـنَـنَـا بِـاتِّـزَانْ

قَضَيْنَا لَيَالِيَ مِنْ عُمْرِنَا نِهَايَتُهَا أَنْ نَصُوغَ البَيَانْ
وَنَأْكُلُ مَا نَشْتَهِي مِنْ طَعَامْ وَنَخْطُبُ وَالخَصْمُ دَوْمًا يُدَانْ
وَمَا خَصْمُنَا غَائِبٌ أَوْ بَعِيدْ وَلَكِنَّهُ فِي الحَشَا وَالجَنَانْ

إن الدلالة الوجدانية من خلال كلمتي(الحشا، الجنان) تعكس الحالة الشعورية التي وصل إليها الشاعر؛ فلذلك خاطب أعداء أمته بقوله (الجدع و جرّار، 1403هـ- 1983م، صفحة 152):

فَنَمْ أَيُّهَا الخَصْمُ مَلْءَ الجُفُونْ وَدُمْ فِي هَنَاءٍ وَدُمْ فِي أَمَانْ
فَمَنْ رَامَ سُحْقَ العِدَا مُخْلِصَا تَدَرَّعَ فِي الصّمْتِ في كُلِّ آنْ
وَأَضْحَى يَجْمَعُ طَاقَاتِهِ لِيَقْذِفَهَا فِي مَجَالِ الرّهَانْ

فالشاعر يعكس حالة اليأس التي يكاد يصل إليها حينما خاطب خصمه بقوله نم ملء الجفون فلن نحرّك ساكنا، فقومي في صمتهم هائمون، وأضحى شغلهم في تفاهات الأمور، وهو ما جعل تجربة الشاعر معبّرة عن موقف شعوري وحالة وجدانية عاشها بفكره وأحاسيسه وعواطفه؛ فالشيخ المستاوي "شاعر تطلع إلى أبناء أمته وهم يلهثون وراء الحضارة الغربية في كل أمورهم، فهاله حالهم... وجاء شعره نداءات وصرخات، وزفرات وأنَّات ملأت عليه قلبه فنطق بها لسانه وخطّها يراعه فوجدت في نفوس المسلمين وجموعهم صدى ..." (الجدع و جرّار، 1403هـ- 1983م، صفحة 126).

ولنستمع إلى الشيخ مصطفى السِّباعي(1915-1964م)[3] وقد ألمّ به المرض يناجي ربه ويشكو إليه ضعفه وقلة حيلته؛ في موقف إنساني، وتجربة شعرية تعكس آهات شاعر وأحاسيسه ومشاعره، بدأها بدعوته أن يحملوه إلى باب الحبيب، وقد هيّجه الشوق والغرام، يقول (السباعي، 1418هـ-1997م، الصفحات 322-323):

إِحْمِلُونِي إِلَى الحَبِيبِ وَرُوحُوا وَاطْرَحُونِي بِبَابِهِ وَاسْتَرِيحُوا
أَنَا مَنْ هَيَّجَ الغَرَامُ شَجَاهُ وَبَرَاهُ الهُيَامُ وَالتَّبْرِيحُ
طَالَ سقْمِي وَطَالَ فِيهِ عَنَائِي لَيْتَ شِعْرِي مَتَى يَصِحُّ الجَرِيحُ
شِدَّةٌ إِثْرَ شِدَّةٍ تَتَوَالَى هَا أَنَا اليَوْمَ فِي الفِرَاشِ طَرِيحُ
لَسْتُ آسَى عَلَى لَذَائِذِ عَيْشٍ أَوْ عَلَى الجَاهِ وَالشَّبَابِ أَنُوحُ
غَيْرَ أَنِّي انْتُزِعْتُ مِنْ بَيْنِ صَحْبِي فَارِساً مُعَلِّماً بِجِسْمِي جُرُوحُ

إن مناجاة الشاعر وشكواه واضحة في الأبيات، وقد أكثر من الألفاظ التي لها دلالات وجدانية عميقة،

وتكشف عن مشاعر وأحاسيس شاعر أنهكه المرض، ولكن لم يمنعه من مشاعر الحب الإلهي الذي يجد فيه قوة على مجابهة هذا الموقف العصيب، فألفاظ (الحبيب، الغرام، الهيام) كلمات تعكس عاطفة الحب عند الشاعر، وامتزج هذا الحب بألم وآهات (سقمي، عنائي، الجريح، شدّة، طريح، آسى، أنوح، جروح)، وهي كلها كلمات نابعة من قلب عاش موقفا وجدانيا تمثل في تجربة المرض، فظهرت هذه الأحاسيس والمشاعر والآهات، ولكنها آهات لا ترد قدر الله عز وجل (السباعي، 1418هـ-1997م، صفحة 323):

قَــدَرُ اللهِ لَا يُــرَدُّ بِــسُــخْــطٍ ... لَـيْـسَ إِلَّا الـخُـضُـوعُ وَالـتَّـسْـبِـيـحُ
يَـا سِـهَـامَ الأَقْـدَارِ خَـلِّـي ثَـلَاثًا ... هِـيَ عِـنْـدِي وَجْـهُ الحَيَاةِ الصَّبِيحُ
أُتْـرِكِـي لِـي عَـقْـلِـي أُفَـكِّـرُ فِـيـهِ ... وَعُـيُـونِـي أَرْنُـو بِـهَـا وَأَرُوحُ
وَيَـدِي تَـمْـلَأُ الـصَّـحَـائِفَ عِـلْـماً ... وَبَـلَاغـاً وَبِـالـشُّـجُـونِ تَـرُوحُ

يظهر الشاعر عجزه على ردّ قضاء الله، ولكن يتمنى أن يُبقي له العقلَ والعين واليد؛ وذلك لارتباطها بأشياء وجدانية لها في قلب الشاعر مكانة؛ فالعقل يمنحه التفكير الذي يحصل به على لذّة العلم، والعين هي وسيلته في ذلك، وهو لا يقصد بها العين الباصرة فقط، ولذا استعملها بصيغة الجمع (عيوني)، فالعين عين البصيرة، وعين القلب، والحبيب... وأما اليد فهي التي يخطّ بها، ويملأ بها الصحائف بما تجود به قريحته، وتمنّي الشاعر يكشف لنا حالة وجدانية عميقة؛ فتتعالى مناجاته للمولى سبحانه قائلا (السباعي، 1418هـ-1997م، الصفحات 323-324):

رَبِّ قَـدْ أَعْـجَـزَ الأَطِـبَّـاءُ دَائِـي ... مَـا لِـدَائِـي سِـوَاكَ رَبٌّ يُـزِيـحُ
وَإِذَا شَـاءَتِ الـعِـنَـايَـةُ أَمْـرًا ... يَـسَّـرَتْـهُ مِـنْ بَـعْـدِ يَـأْسٍ يَـلُـوحُ
فِـي رِحَـابِ الـكَـرِيـمِ أَلْـقَـيْـتُ رَحْـلِي ... إِنَّ قَـصْـدَ الـكِـرَامِ شَـأْنٌ نَـجِـيـحُ
وَلَـقَـدْ يَـقْـبَـلُ الـكِـرَامُ جُـنَـاةً ... قَـدْ تَـرَامُـوا وَدَمْـعُـهُـمْ مَـسْـفُـوحُ
عَـلِـمَ اللهُ ذِلَّـتِـي وَانْـكِـسَـارِي ... وَدُمُـوعِـي وَذُو الـهَـوَى مَـفْـضُـوحُ

التجاء ومناجاة الشاعر تظهر من خلال كثرة استعماله للألفاظ التي تحمل دلالات ومعاني مشحونة بمشاعر الخضوع والتسليم لأمر الله؛ فهو القادر على كشف كربته وحزنه ومنها (رب، كررها مرتين، العناية، الكريم، الكرام كررها مرتين...)، وفي ظل هذا الموقف الإنساني تتبادر إلى ذهن الشاعر تساؤلات النهاية والمصير، وتتجاذبه أحاديث النفس وتخيّلاتها، فيخاطبها بقوله (السباعي، 1418هـ-1997م، صفحة 325):

إيـهٍ يَـا نَـفْسُ قَدْ مَضَـى لَكِ عَهْدٌ لِلـشَّـبَـابِ النَّـضِـيـر فِيهِ طُمُـوحُ
قَـدْ أَمِـنْـتِ الـبَـلَاءَ وَهْـوَ قَـرِيـبُ وَرَفَـضْـتِ الـهُـدُوءَ وَهْـوَ مُـرِيـحُ
صَرَفَتْكِ الأَعْبَاءُ فِي الحَقِّ عَنْ أَنْ تَسْمَعِـي لِلطَّبِيبِ وَهْوَ نَصُوحُ
وَهَجَرْتِ الـصِّحَـابَ وَالأَهْلَ حَتَّى كَـانَ مِـنْـهُـم جَـوٌ وِمِـنْـهُـمْ مَشِيحُ
رَغْـبَـــةً فِـي مَـثُـوبَـةِ اللهِ لَـمَّـا كَـانَ لِـلـشَّـــرِّ ضَـجَّـةٌ وَفَـحِـيحُ

يبدأ الشاعر كلامه مع النفس بزفرات تعكس حالته الوجدانية، ومرارة ما يشعر به من ألم وحزن، فاستعمل لفظة (إيه) وما تحمله من معاني الحسرة على الماضي؛ ماضي الشباب، وما فيه من طموح وفتوة، وتحدّ للأهوال حتى ظنت النفس أن البلاء بعيد منها، ولم تسكن للأعباء والصعاب رغبة في مثوبة الله، وهو ما جعل الشاعر وقد يئس الأطباء من شفائه يناجي ربه ويشكو إليه حزنه وألمه، يقول (السباعي، 1418هـ-1997م، صفحة 325):

يَـئِسَ الـطِّـبُّ مِـنْ شِفَائِي أَخِيرًا لَـمّـحُـوا تَـارَةً وَآنًـا صَـرِيـحُ
أَتَـرَانِـي يَـا نَـفْـسُ أَيْـأَسَ مِـنْـهُ ذَاكَ فِـي الـدِّيـنِ ضِـلَّـةٌ وَقَـبِـيحُ
حَـسْـبِـيَ اللهُ لَا أُرِيـــدُ سِـــوَاهُ هُـوَّ أُنْـسِـي وَفِـي حِـمَـاهُ أَرِيـحُ
رَبِّ لَـوْلَاكَ مَـا اسْتَـطَـعْتُ ثَـبَـاتًـا فِـي مَـسِـيرِي وَلَا سَـمَـتْ بِيَ رُوحُ
فَـأَدِمْ فَـضْـلَـكَ الـعَـمِـيـمَ وَأَنْـعِـمْ بِـشِـفَـاءٍ لِـلْـقُـرْبِ مِـنْـكَ يُـتِـيـحُ

إن هذه الأبيات تعكس تجربة إنسانية عاشها شاعر فقيه، بثّ من خلالها أحاسيسه ومشاعره، وآهاته ومناجاته، وهي تعكس إخلاصه وصدق تجربته، وهو الشاعر الفقيه الذي اجتمعت فيه عديد الصفات فقد كان الشيخ السباعي "عالما فقيها سياسيا داعية مجاهدا مؤلفا ... شاعرا، انطلقت شاعريته من حسٍّ مرهفٍ وعاطفة عميقة ونظرات صائبة وإخلاص شديد" (الجدع أ.، 2009).

وشعر المناجاة والشكوى مما لا يكاد يخلو منهما ديوان شاعر فقيه، وهو بذلك علامة مميزة للشعراء الفقهاء، وهو غرض شعري وجداني يعبر فيه الشاعر عن تجربة شعرية، ويطلق فيها العنان لمشاعره وأحاسيسه وعواطفه ومواقفه الإنسانية لتعبر بعمل فني فيه جميع مقومات الإبداع الجمالي.

إن المتتبع للأغراض الشعرية عند فقهاء الشعراء المعاصرين يجد تجاربا شعرية متكاملة، بلغت حدّ النضج والإبداع الجمالي في العملية الفنية، و"التي حفلت بفيض من المشاعر الصادقة، فخاطبت القلوب قبل العقول، ومن أمثلة ذلك من شعر الزهد، وصف وحشة القبر" (عيسى سراج ، 1415هـ-1994م، صفحة 276) وفي المدح تظهر عند الفقهاء صدق التجربة الشعرية؛ فقد كان المحرّك لمدحهم مشاعر الإعجاب

والحبّ الذي يكنّونه للممدوحين، ولذا تميّزت تجاربهم في غرض المدح بقوّة العاطفة وصدقها؛ يظهر ذلك جليّا في مدحهم للنبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته وصحابته رضي الله عنهم (عيسى سراج ، 1415هـ-1994م).

وفي الرثاء تظهر فيض المشاعر والأحاسيس التي انبعثت من قلوب ملتاعة بفقد الأهل والأحبة والأصدقاء، وقد تميزت تجاربهم في هذا الغرض – خاصة في رثاء الأهل – بالصدق الفني الذي أخلصوا فيه لتجاربهم الشعرية، وتسامى فيه الشعراء الفقهاء عن تزييف المشاعر والأحاسيس (عيسى سراج ، 1415هـ-1994م)، وهكذا لو تتبعنا جميع الأغراض لوجدنا تجارب شعرية اتّسمت بالصدق الفني، مع عدم إغفال الجانب الإبداعي التي تتطلّبه العملية الفنية، ولإظهار ذلك نتتبع نماذج من التجربة الشعرية في هذه الأغراض عند الشيخ أحمد سحنون الجزائري رحمه الله.

5. التجربة الشعرية عند شعراء الفقهاء المعاصرين

الشيخ أحمد سحنون (رحمه الله) أنموذجا:

5،1. نبذة عن حياته:

لا يمكننا في هذه العجالة أن نتحدث عن سيرة الشيخ سحنون وهو الغني عن التعريف، وليس الغرض تتبع حياة الشيخ المليئة بالأحداث؛ وإنما نذكّر القارئ بمحطات مختصرة من حياة الشيخ؛ والتي كان لها الأثر البالغ في اتّجاهه الشعري والتأثير في تجربته الشعرية.

الشيخ أحمد سحنون الليشاني الجزائري البسكري، ولد ببلدة ليشانة قرب طولقة ببسكرة سنة 1907م، أبوه سحنون ابن ابراهيم، وأمه عائشة مكي بنت الحاج بلقاسم بن الطالب بن مكي، وقد توفيت وهو رضيع؛ فتولت رضاعته الكثير من النسوة في بلدته (أبو البراء، 2006م)، وهي أول محنة عاشها الشيخ؛ فتأثرت تجربته الشعرية بذلك؛ فجاءت الكثير من القصائد معبرة عن آهات وعاطفة جياشة وأحاسيس مرهفة؛ وكثيرا ما خاطب الأنثى، ممثلة في ذكره لبناته بالاسم، وهو يدلّ على ذلك الصوت الأنثوي المفقود في حياة الشيخ من الرضاعة. ولذلك ظهر هذا الإحساس بالفقدان والحرمان في تجربته الشعرية، يقول وهو يخاطب والده (سحنون، 2007م، صفحة 70):

وَيَـوْمَ فَقَـدْتُ أُمّـي كُـنْـتَ أُمِّـي تُوَاسِينِـي وَتُنْسِينِـي الـجِـرَاحَـا
فَـلَـيْسَ أَحَـقُّ مِـنْكَ بِصَفْوِ وُدِّي وَلَا أَوْلَـى احْـتِـرَامًـا وَامْـتِـدَاحَـا

عاش الشيخ في كنف والده فاعتنى به عناية فائقة؛ فأدخله الكُتّاب منذ صغره فحفظ القرآن وعمره لا يتجاوز الثانية عشرة، وتلقى مبادئ العلوم الشرعية على يد علماء بلدته، وكان لعلماء زاوية طولقة دورا كبيرا في بناء شخصيته العلمية والدينية، ومع ذلك فقد اعتمد الشيخ على اجتهاده العصامي، وتعتبر

المحطة الفارقة في حياة الشيخ هي اتصاله برائد الحركة الإصلاحية عبد الحميد بن باديس، وسرعان ما ارتبط بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وتدرّج في مسؤولياتها حتى أصبح من أهم رجالاتها.

عاش الشيخ حياة متقلبة؛ من حياة اليتم في صغره إلى حياة السجن وهو شاب؛ فقد اعتقله المستدمر الفرنسي سنة 1956م وأُدخل سجن البرواقية، وحُكم عليه بالإعدام، وفي السجن جادت قريحته الشعرية بأجمل قصائده، وعاش الموقف فأثر ذلك على تجربته الشعرية؛ فكتب مجموعته الشعرية (قصائد من السجن) (سحنون، 2007م) ليمكث في سجنه حتى سنة 1959م، وبعد الاستقلال استمرت معاناة الشيخ بسبب مواقفه الثابتة في رؤيته لتطبيق المبادئ الاسلامية في الجزائر المستقلة، وقد أسّس رابطة الدعوة الإسلامية والتي هي لسان الكثيرين من الدعاة والعلماء، مما سبب له مضايقات كثيرة، ليتعرض لمحاولة اغتيال إبان العشرية السوداء إلا أنه نجا منها، وبقي الشيخ ثابتا صابرا إلى أن توفاه الله في الثامن من ديسمبر سنة 2003م (دحماني و قطاش، 2019م) . وقد كانت لجميع هذه المحطات أثرا بارزا في كثافة تجربته الشعرية، مما انعكس على نتاجه الشعري، من غزارة، وذاتية، وصدق عاطفة، وتعدد للأغراض...

5،2. روافد تجربته الشعرية:

ككل الفقهاء الشعراء تأثر الشيخ أحمد سحنون في تجربته الشعرية بالقرآن الكريم، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين والعلماء، والمتتبّع لأشعاره يجد فيها الكثير من الألفاظ القرآنية، كمثل قوله (سحنون، 2007م، صفحة 142):

رَبِّ إِنَّ الفَقِيرَ أَسْلَمَهُ النَّاسُ فَلَا رَاحِمَ لَهُ أَوْ مُجِيرُ

كُنْ لَهُ خَيْرَ رَاحِمٍ وَنَصِيرٍ أَنْتَ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ

فالشاعر اقتبس ألفاظ (نعم المولى ونعم النصير) من الآية القرآنية {فَإِنْ تَوَلَّوْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِير}(الأنفال: الآية40)، وكمثل قوله (سحنون، 2007م، صفحة 352):

وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ يَبْلُغْ مُرَادَهُ وَلَمْ يَلْقَ فِي دُنْيَاهُ هَمًّا وَلَا حُزْنَا

وهو اقتباس من الآية القرآنية{وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}(آل عمران: الآية101)، وكقوله (سحنون، 2007م، صفحة 361):

لَمْ نَكُنْ خَيْرَ أُمَّةٍ بِسِوَى الإِسْلَامِ إِنَّا بِهِ نَفُوزُ وَنَبْقَى

وهي من الآية الكريمة{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} (آل عمران: الآية110)، والملاحَظ في هذه الاقتباسات القرآنية أنها اقتباسات حرفية؛ فالشاعر يقتبس آية أو جزءا من آية اقتباسا حرفيا، وأما اقتباس المعاني القرآنية فهي كثيرة ومبثوثة في أغلب قصائده، وهو بذلك لم يخرج على عادة الشعراء الفقهاء في تأثرهم بالألفاظ والمعاني القرآنية. وهكذا في استحضاره لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، كمِثْل

استحضاره لاسم النبي صلى الله عليه وسلم وأسماء صحابته للدلالة على فخره بانتساب الأمة لنبيها وأصحابه، يقول: (سحنون، 2007م، صفحة 127)

نَحْنُ سَبِيلُ الهَدَى وَنَشْءُ المَعَالِي نَحْنُ جُنْدُ الإِلَـهِ جُنْدُ مُحَمَّدْ
نَحْنُ أَحْفَادُ خَالِدٍ وَالمُثَنّى مَن لَّهُ مِثْلَ مَا لَنَا مِنْ سُؤْدَدْ

ربط الشّاعر القيمة التي يدعو إليها (الهدى والمعالي) باسم النبي صلى الله عليه وسلم (محمد)، وباسمي (خالد والمثنى) وهي أسماء تحمل دلالات ومعاني وجدانية في نفس الشاعر فتأثرت تجربته الشعرية واستحضر هذه الألفاظ والمعاني.

5،3. تجربته الشعرية في أغراض الشعر:

طرق الشيخ سحنون جلّ الأغراض الشعرية، من مناجاة وشكوى، ومدح ورثاء، وفخر...، وكغيره من شعراء الفقهاء المعاصرين أكثرَ من الأغراض الاسلامية، كالدعوة إلى الأخلاق، ولكن مما تميز به الشيخ سحنون كثرة الشعر الثوري؛ وهو الذي عاش تجربة الاحتلال، ومعاناة شعبه من الظلم والحرمان؛ فتأثر الشاعر بذلك، وعبّر عن أحاسيسه ومشاعره، وبذلك ظهر الشعر الثوري بقوة في قصائده. وسنحاول من خلال تتبع بعض قصائده الوقوف عند تجربته الشعرية كنموذج متميّز لشعر الفقهاء المعاصرين.

5 ،3،1. في المناجاة والشكوى:

شعر المناجاة من الأغراض التي تكشف حقيقة التجربة الشعرية عند الشعراء؛ وذلك لأنه يتميز بظهور ذاتية الشاعر؛ من خلال التعبير عن مشاعره وعواطفه، وبث أحاسيسه وهواجسه النفسية، وفي ظل انسداد الأفق عند الشاعر؛ لا يجد إلا المناجاة والالتجاء إلى ربه عز وجل ليعبّر عمّا في دخيلاء نفسه، وتظهر تجربة الشاعر حينما يعيش موقف السجن وقد قُطِعت عليه كل السبل فلم يبق له إلا من بيده الحول والقوة، يقول (سحنون، 2007م، صفحة 141):

رَبَّاهُ لَمْ تَبْقَ لَنَا حِيلَةٌ وَمَا لَنَا حَوْلٌ وَلَا قُوَّهْ
وَمَا لَنَا غَيرَكَ مِنْ عَاصِمٍ يَعْصِمُنَا مِنْ هَذِهِ الهُوَّهْ

فالشاعر أراد أن يعبر عن مشاعره وأحاسيسه؛ فبدأ بلفظة (ربّاه) والتي تحمل دلالات وجدانية عميقة، وتعكس حقيقة مناجاته لربه، ليفصح له عن شكواه، فيقول (سحنون، 2007م، صفحة 141):

عِشْنَا بِأَحْشَاءَ مُمَزَّقَةٍ كَأَنَّهَا بِالشَّوْكِ مَحْشُوَّهْ
عِشْنَا بِأَجْفَانٍ مُسَهَّدَةٍ مِنْ أَجْمَلِ الأَحْلَامِ مَجْفُوَّهْ
أَوْطَانُنَا الجَنَّاتِ لكِنَّنَا نَأْوِي لِسْجْنٍ لَمْ نُطِقْ جَوَّهْ

أَيَّامُنَا الغُرُّ اسْتَحَالَتْ إِلَى صَحَائِفَ لِلْحُزْنِ مَتْلُوَّهْ

معاني الحزن بادية في الأبيات، ولذا أكثر الشاعر من الألفاظ التي لها دلالات وجدانية تعكس حالة الألم الذي يعيشه(أحشاء ممزقة، بالشوك محشوّه أجفان مسهّدة، أحلام مجفوّه، سجن لم نطق جوّه)؛ فالشاعر عاش تجربة السجن؛ فجاءت تجربته الشعرية لتكشف لنا عن هذا الموقف وما فيه من مشاعر وعواطف وأحاسيس صادقة. وتتزايد الحالة الوجدانية للشاعر، وهو الذي يعيش الحرمان في السجن، وينظر إلى وطنه الذي يئن تحت وطأة المستعمر، فيتساءل الشاعر متى يرى الفرج االمنشود، فيقول (سحنون، 2007م، صفحة 141):

مَتَى نَرَى صَفْحَةَ أَيَّامِنَا كَصَفْحَةِ الصَّارِمِ مَجْلُوَّهْ؟
مَتَى نَرَى ظُلْمَةَ آفَاقِنَا أَضْحَتْ بِنُورِ الفَجْرِ مَجْلُوَّهْ
مَتَى نَرَى رَوْضَةَ آمَالِنَا مُفَتَّرَةُ الأَزْهَارِ مَزْهُوَّهْ

إن تكرار التساؤل بمتى (كررها ثلاث مرات) لهي تعكس حالة الحزن والألم الشديد الذي يعيشه الشاعر، وهو الذي يتمنَى أن تنجلي غشاوة الظلم الذي سُلِّط على وطنه، وأن يظهر نور الاستقلال، ولكن ذلك قد طال انتظاره، فلا يجد الشاعر من يسمع شكواه؛ فيلتجأ إلى مناجاة ربه؛ فهو وحده القادر على تحقيق آماله المفقودة، يقول (سحنون، 2007م، صفحة 141):

عَجِّلْ لَنَا بِالأَمَلِ المُرْتَجَى وَافْتَحْ لَنَا مِنْ فَرَجٍ كُوَّهْ!
وَإِنْ يَكُنْ ذَنْبٌ أَمَا رَحْمَةً مِنْكَ لِأَهْلِ الذَّنْبِ مَرْجُوَّهْ

إن هذه الأبيات لهي تعكس حقيقة تجربة الشاعر الفقيه حينما يعبر عن أحاسيسه ومشاعره النفسية؛ فلا يجد إلا شعر المناجاة والشكوى للتعبير عن مكبوتاته وآلامه وآماله، والشيخ أحمد سحنون عاش الموقف وأخلص لتجربته؛ فانعكس ذلك على شعره في غرض الشكوى والمناجاة.

2،3، 5. **في المدح والرّثاء**:

وهما من الأغراض الشعرية التقليدية التي استمرّت عند الفقهاء الشعراء من العصر النبوي؛ فقد حافظ شعراء الفقهاء المعاصرين على هاذين الغرضين مع بعض الانزياحات الطفيفة، والشيخ سحنون يكثُر عنده المدح والرثاء؛ ومردّ ذلك إلى ثراء تجربته الشعرية؛ فقد عاش مواقف مختلفة وكان الشعر خير معبر على هذه المواقف، ومن بينها فقده لأمه وهو صغير، فالشيخ تربى في حضن والده؛ فكان له خير مثال، فيخاطبه بقوله (سحنون، 2007م، صفحة 70):

حَيَاتُكَ كُلُّهَا كَانَتْ كِفَاحاً مَرِيرًا قَدْ جَنَيْتَ بِهِ النَّجَاحَا!
فَكُنْتَ أَباً مِثَالِياً حَكِيماً بِهِ نِلْتُ السَّعَادَةَ وَالفَلَاحَا!

وَكُنْتَ أَخاً كَرِيماً أَرْيَحِياً ... يُبَادِلُنِي الفَاكِهَةَ وَالمُزَاحَا!
وَكُنْتَ مُعَلِّماً يَقِضاً تَقِياً ... يُقَلِّدُنِي مِنَ التَّقْوَى سِلَاحَا!
يُعَلِّمُنِي المَكَارِمَ وَالمَعَالِي ... وَيُهْدِينِي الفَضِيلَةَ وَالصَّلَاحَا
حَنَانُكَ كَانَ فِي بُؤْسِي عَزَاءً ... وَرَأْيُكَ كَانَ فِي لِيْلِي صَبَاحَا

فالشاعر يرى أباه أنه مصدر الكفاح والنجاح والسعادة التي نالها، ولذلك مدحه بعديد الأوصاف (المكافح، الحكيم، المثالي، المعلّم، التّقي...)، وهي ألفاظ لها دلالات وجدانية في نفس الشاعر؛ فهو الشيخ الفقيه الذي عاش حياة الحرمان في صغره بفقده لأمّه؛ فلم يجد إلا رحمة الأبوة التي احتضنته وشدت من أزره في مواجهة الصّعاب، ولذلك تذكّر هذه المعاني، قال (سحنون، 2007م، صفحة 70):

وَيَوْمَ فَقَدْتُ أُمِّي كُنْتَ أُمِّي ... تُوَاسِينِي وَتُنْسِينِي الجِرَاحَا
فَلَيْسَ أَحَقُّ مِنْكَ بِصَفْوِ وُدِّي ... وَلَا أَوْلَى احْتِرَاماً وَامْتِدَاحَا
وَإِنْ قَصَّرْتُ فِي شُكْرِي وَبِرِّي ... فَفَضْلُكَ يُفْحِمُ اللُّسْنَ الفِصَاحَا
سَأَلْتُ اللهَ أَنْ تَبْقَى وَحَسْبِي ... بَقَاؤُكَ لِي رَجَاءٌ وَاقْتِرَاحَا
لِيَحْظَى نَاظِرِي بِسَنَا مُحَيَّا ... مَدَدْتُ بِهِ إِلَى الجَوْزَاءِ رَاحَا

إن هذه الأبيات الشعرية من مدح الشيخ سحنون لأبيه تعكس تجربة شاعر فقيه أخلص لتجربته الشعرية؛ فعبّر عن مشاعره وأحاسيسه اتجاه عاطفة الأبوة، فتوجه إليه بالمدح، ومع أن الشيخ حافظ على الاتجاه التقليدي لهذا الغرض؛ إلا أننا نلمح انزياح الشاعر لإبراز المعاني الوجدانية التي توجه بها للممدوح من خلال استخدامه لغرض المدح.

وفي مدحه للشيخ عبد الحميد بن باديس يظهر الشيخ سحنون عاطفة الفخر والاعتزاز بعلَم من أعلام الجزائر، فيخاطبه بقوله (سحنون، 2007م، صفحة 244):

بَادِيسُ يَا حُبَّ الجَزَائِرِ ... يَا شَهِيدَ غَرَامِهَا
وَحُسَامُهَا الحَامِي حِمَا ... هَا مِنْ مُرِيدِ حِمَامِهَا
وَمُعِيدُ غَابِرِ مَجْدِهَا ... وَالبِيضَ مِنْ أَيَّامِهَا
وَطَبِيبُهَا مِنْ جَهْلِهَا ... وَالجَهْلُ أَصْلُ سِقَامِهَا
تَبْكِيكَ أُمَّتُكَ المُصَابَةُ ... فِي أَعَزِّ كِرَامِهَا

إن ألفاظ المدح ظاهرة في الأبيات (يا حب الجزائر، يا شهيد، الحامي حماها، معيد غابر مجدها، طبيبها من جهلها)؛ فالشاعر يمدح شخصية كان لها اثرا بالغا في حياته، فظهرت مشاعر الحب والتقدير

من خلال تجربته الشعرية، ووصلت الدفقة الشعورية إلى أعلى مستوياتها عندما تذكّر الشاعر وفاة ابن باديس، يقول (سحنون، 2007م، صفحة 245):

ذِكْـــرَاكَ يَـا بْـنَ بَـادِيـــسَ لَا أَقْـــوَى عَـلَـى إِيـلَامِـهَـا
شَـبَّـتْ بِـقَـلْـبِـيَ فَـاكْـتَـوى قَـلْـبِـي بِـمَـسِّ ضِـرَامِـهَـا
وَتَـمَـثَّـلَـتْ فِـي أَنْـفُـسٍ فَـقَـضَـتْ عَـلَـى إِلْـهَـامِـهَـا
عَـقَـلَـتْ وَحَـقُّـكَ أَلْـسُـنـاً مَـا جَـمْـجَـمَـتْ بِـكَـلَامِـهَـا
ذِكْـــرَاكَ فِـي الـدُّنْـيَـا سَـتَـبْـقَـى حَـيَّـةً بِـدَوَامِـهَـا
ذِكْـــرَاكَ أَنْـتَ فَـأَيْـنَ أَنْـتْ أَلَـسْـتَ عِـقْـدُ نِـظَـامِـهَـا؟
نَـــجْـوَاكَ طِـيـبُ حَـدِيـثِـهَـا وَدُعَـــاكَ مِـسْـكُ خِـتَـامِـهَـا

مشاعر وأحاسيس الشاعر الوجدانية تبرز في الأبيات من خلال تكرار الشاعر لألفاظ لها دلالات نفسية عميقة في ذاته؛ فقد كرر كلمة (ذكراك) ثلاث مرات، وهي تدل على ألمه وحزنه على فقده للشيخ ابن باديس، وصرح بذلك بقوله: (لا أقوى على إيلامها، شبت بقلبي، اكتوى قلبي بمس ضرامها) وللدلالة على إخلاصه لتجربته الشعرية في صدق العاطفة تجاه الممدوح كرر لفظة (قلبي) مرتين، وهي توحي بمكانة الممدوح(ابن باديس) في نفس الشاعر ومدى قوة الحب والتقدير التي يكنها له.

هذه الأبيات التي سقناها تعكس حقيقة التجربة الشعرية عند فقهاء الشعراء المعاصرين متمثلة في تجربة الشيخ الفقيه أحمد سحنون، في استخدامه لغرض المدح لإبراز تجربته الشعرية.

وفي الرثاء تظهر حقيقة التجربة الشعرية عند الشعراء الفقهاء، وذلك أنهم يخلصون لتجاربهم؛ فهم لا يرْثون من أجل "تزلّف أو تقرّبٍ إلى ذوي الجاه والسلطان، بل كثيرا ما كان يَصْدُر عن عاطفة متدفّقة مبنيّة على صدقٍ واقتناع بالشّخص المرثيّ" (مرتاض، 1414هـ - 1994م، صفحة 97)، والشيخ سحنون ممن عُرف بعاطفته الجيّاشة؛ وهو الذي عاش مواقف عصيبة انعكست على تجربته الشعرية، لنستمع إليه وهو يرثي صديقة أحمد توفيق المدني بقوله (سحنون، 2007م، صفحة 232):

مَـاتَ تَـوْفِيقُ! كَيْفَ يَا تَوْفِيقُ؟ يَتَـحَـدَّى اجْـتِـمَـاعَـنَـا التَّفْرِيـقُ؟
كَـيْـفَ يَعْدُو كفُّ المَنَايَا عَلَى الصَفِّ فَيَجْتَاحُ صَفُّنَا التَّمْزِيقُ؟
وَمَـشَـارِيـعُـنَـا الـتِّـي قَـدْ بَنَيْنَا كَيْفَ يَجْتَثُّ صَرْحَهَا التَّعْوِيقُ؟
مَاتَ تَوْفِيقُ! أَيْنَ تَمْضِي أَخِي قُلْ لِي؟ وَأَيْنَ اللِّقَاءُ؟ أَيْنَ الطَّرِيقُ؟

يعبّر الشاعر عن حالة وجدانية تجاه صديقه الذي غيّبه الموت؛ فلم يستوعب ذلك فبدأ بالتعجب (مات توفيق!)، ثم ثنّى بسؤاله وكأنّه يسمعه (كيف يا توفيق؟) وكيف للمنايا أن تفرّق بيننا؟ وهذا يعكس مشاعر الألم والحسرة على فقد الشاعر لصديقه، وأثر الصدمة التي عاشها الشاعر تظهر من خلال تكراره لألفاظ لها دلالات شعورية عميقة في نفسه (مات توفيق!) فقد كررها في القصيدة خمس مرات، وهي تظهر الحالة الشعورية التي عاشها الشاعر من خلال هذا الموقف، لتواصل الدفقة الشعورية بشكل متصاعد كاشفة عن الحالة الوجدانية للشاعر فيعيد العبارة التي بدأ بها (مات توفيق!)، يقول (سحنون، 2007م، صفحة 232):

مَاتَ تَوْفِيقُ! أَيُّ طَعْنَةِ سِكِّينِ لَهَا فِي حَشَاشَتِي تَمْزِيقُ
مَاتَ تَوْفِيقُ! يَا لَهُ خَبَراً يُذْهِلُ لَمْ يُسْتَطَعْ لَهُ تَصْدِيقُ
يَا لِهَوْلِ المُصَابِ يَا نَكْبَةً مَا مِثْلَهَا نَكْبَةٍ بِشَعْبٍ تَحْقِيقُ

إنّ الشاعر إذ يرثي صديقه؛ فهو يعبّر عن تجربة شعرية يعكس من خلالها أحاسيسه ومشاعره وعواطفه؛ فلم ينحو كعادة الرثاء التقليدي إلى ذكر خصال المرثي – لم يزد عن أربعة أبيات– واستدعاء الدموع، وكثرة التباكي عليه، وإنما أخلص لتجربة في إظهار مشاعر الحزن والألم والحسرة التي يشعر بها الشاعر يقول (سحنون، 2007م، صفحة 233):

إِنَّنِي لَأُحِسُّ ضِيقاً بِصَدْرِي وَالحَيَاةُ بِلَا صَدِيقٍ تَضِيقُ

....

مُتَّ يَا تَوْفِيقُ يَا رَفِيقَ حَيَاتِي وَأَنَا بِتَرَابِ بَيْتِي لَصِيقُ
لَا أُطِيقُ تَشْيِيعَ نَعْشَكَ لِلْقَبْرِ فَعَفْواً إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أُطِيقُ
لَمْ أَعُدْ فِي الحَيَاةِ حُرّاً طَلِيقاً لَيْتَنِي فِي الحَيَاةِ حُرٌّ طَلِيقُ
إِنَّ وَجْهاً لِصَاحِبٍ لَمْ يَذُبْ حُزْناً لِمَوْتِ صَدِيقِهِ لَصَفِيقُ

....

وَفُؤَادِي إِنْ وَدَّعَ الصَّحْبَ لَا يَبْرَحُهُ الحُزْنُ فَهُوَ حُزْنٌ عَمِيقُ

إن هذه الأبيات التي رثى فيها الشيخ سحنون صديقه تعكس تجربة شعرية عاشها الشاعر؛ فعبّر عن أحاسيسه ومشاعره وعواطفه، وهي تعكس الاتجاه الذي نحاه شعراء الفقهاء المعاصرين في غرض الرثاء، وأظهروا فيه إخلاصهم لتجاربهم الشعرية التي عبّرت بصدق عن مواقف إنسانية عاشوها وكان الرثاء خير معبّر على حقيقة هذه المواقف والتجارب.

3،3، 5. **في الغربة والحنين**:

من خلال التتبع لكثير من القصائد في شعر فقهاء الشعراء المعاصرين نلحظ أن غرض الغربة والحنين في تجاربهم الشعرية دار حول موضوعات متعددة، منها التشوق إلى الأهل والأصدقاء، والحنين إلى الوطن، ووصف الغربة عن الوطن والأهل، والشكوى من حياة السجن ...، والشيخ سحنون عاش مواقف كثيرة، وجرّب البعد عن الوطن والاهل والأصدقاء، ودخل السجن؛ فانعكس ذلك على تجربته الشعرية، وعبّر عن أحاسيس صادقة ومشاعر متدفّقة.

لنستمع للشيخ سحنون وهو يعبّر عن حالة الاغتراب عن الوطن، ويكشف عن مشاعر الألم والحزن والحسرة في حياة المنفى، يقول (سحنون، 2007م، صفحة 96):

يَا لَهَا غُرْبَةً عَنِ الأَوْطَانِ نَبَّهَتْ مَا غَفَا مِنَ الأَشْجَانِ
غُرْبَةٌ ضُوعِفَتْ بِنَفْيٍ وَسِجْنٍ وَتَنَاهَتْ بِقَسْوَةِ السَّجَّانِ
شُلَّ فِيهَا بِفِكْرِي وَأَجْدَبَ إِلْهَامِي وَأَدْوَتْ بِحِكْمَتِي وَبَيَانِي
وَقَرِيضِي قَدْ عَقَّنِي وَتَلَاشَى بَيْنَ جُدْرَانِهَا صَدَى أَلْحَانِي!
يَا لِسخْفِ الإِنْسَانِ حِينَ نَرَاهُ يَتَحَدَّى الأَفْكَارَ بِالْجُدْرَانِ!

عاش الشاعر حياة الغربة عن الوطن؛ فحرّكت وجدانه، وهيّجت مشاعره، ويزداد ألم الشاعر وهو يئن تحت وطأة السجان حينما لا يجد ما يعبّر به عن حزنه وحسرته؛ فقد شُلّ فكرُه، وأجدب إلهامُه، ولم تسعفه حكمته، وعقّه شعره الذي كان يجد فيه راحة ومتنفسا ينسيه حياة الغربة والنفي والسجن، ومع ذلك يزداد الشاعر إسرارا وقوة وإيمانا للوصول إلى غايته وهدفه، فالغربة والسجن هما طريق تحرير الأوطان،

يقول (سحنون، 2007م، صفحة 96):

لَسْتُ أَعْنُو لِقُوَّةٍ تَتَحَدَّى فِكْرَتِي غَيْرَ قُوَّةِ الدَّيَّانِ
وَالإِيمَانُ القَوِيُّ زَادِي وَهَلْ يَنْفَدُ زَادٌ مِنْ قُوَّةِ الإِيمَانِ
وَطَرِيقُ التَّحْرِيرِ قَدْ حُفَّ بِالْأَشْوَاكِ لَا بِالوُرُودِ وَالرَّيْحَانِ
وَاسْتِقْلَالُ الأَوْطَانِ لَا بَدَّ مُحْتَاجٌ إِلَى بَاهِضٍ مِنَ الأَثْمَانِ
فَلْتَكُنْ غُرْبَتَي وَنَفْيِي وَسِجْنِي فِي سَبِيلِ التَّحْرِيرِ لِلْأَوْطَانِ!

إن هذه الأبيات تنبع من نفسٍ عاشت تجربة الغربة والنفي والسجن، فعبّرت عن أحاسيس ومشاعر شاعر عاش لوعة البعد عن الوطن، وظلم المستعمر، وفقد الحريّة، وهي بذلك تعكس حقيقة التجربة الشعرية عند فقهاء الشعراء المعاصرين في موضوع الغربة والحنين.

وحينما يبتعد الشاعر عن أهله وأولاده تتحرك فيه مشاعر الأبوة، وتهيج مشاعره وعواطفه، والشيخ سحنون عاش الموقف، فعبّر عن ذلك، يقول (سحنون، 2007م، صفحة 67):

يَا رَجَاءَ النَّفْسِ يَا أَقْصَا مُنَاهَا ... يَـا حَبِيبَ الرُّوحِ يَـا كُلَّ هَـوَاهَا!
يَا نَشِيدَ القَلْبِ فِي أَفْرَاحِهِ ... يَا حَيَاةَ الحُبِّ يَا طِيبَ جَنَاهَا!
يَا عَزَائِي فِي شَقَائِي يَا هُدَى ... مُهْجَتِي إِنْ أَظْلَمَ الخَطْبُ دُجَاهَا
يَا رَفِيقَ الرَّوْضِ يَا هَسَّ الرُّبَا! ... يَا دُنَى الأَحْـلَامِ يَا سِحْـرَ رُؤَاهَا
يَا جَمَالَ الزَّهْرِ فِي رَأْدِ الضُّحَى ... يَا نَدَى الأَسْحَارِ يَا عِطْرَ شَذَاهَا

إنّ مشاعر الحنين والشوق واضحة في الأبيات وذلك من خلال اختيار الشاعر للألفاظ التي لها دلالات نفسية تعكس حالته الوجدانية، ومن ذلك تكراره لياء النداء (كررها تسع مرات)، وكأنّ الشاعر ينادي على ابنه الذي لا يسمعه ويلحّ عليه هلّا أجبت نداء قلبٍ مشتاق، ويخاطبه بأرقّ العبارات(يا رجاء النفس، يا حبيب الروح، يا نشيد القلب، يا حياة الحبّ، يا رفيق الروض، يا جمال الزهر...) وهي كلّها عبارات تعكس مشاعر وأحاسيس الشاعر، وتظهر عاطفة الاشتياق والحنين إلى فلذة كبده.

الشيخ سحنون وهو الشاعر الفقيه ومع شدّة اشتياقه وحنينه إلى ابنه؛ إلا أن ذلك لم ينسيه دعوته إلى الصبر والتجمّل، وأن لا يترك الحزن يرميه في مسالك الرّدى، وأن يفتح باب الرجاء والأمل؛ فعسى اللقاء أن يكون قريبا، فيخاطبه بقوله (سحنون، 2007م، صفحة 67):

لاَ تَـدَعْ حُـزْنَـكَ يُـرْدِيكَ فَـكَـمْ! ... قَـرَّبَ الـحُـزْنُ نُفُوساً مِـنْ رَدَاهَـا
وَتَـجَـلَّـدْ فَـأَمَـانِـينَـا عَـلَـى وَشَكِ ... أَنْ يَـسْطَـعَ فِـي الأُفْـقِ سَـنَـاهَـا
وَسَـتَـلْـقَـانِـي فَـتَـنْـسَـى كُـلَّ مَـا ... ذُقْـتَ مِـنْ حَـرْبِ اللَّيَـالِـي وَأَذَاهَـا
فِـي بِـلَادٍ سَـوْف تَـغْـدُو جَـنَّـةً ... تَـجِـدُ الْأَنْـفُسُ فِـيهَـا مُـشْـتَـهَـاهَـا
فَـتَـرَقَّـبْ فَـجْـرَ يَـوْمٍ مُـشْـرِقٍ ... يَـنْـجَـلِـي فِـيـهِ عَـنِ النَّـفْسِ أَسَـاهَـا

إن هذه الأبيات تعكس توجّه الشاعر الفقيه في غرض الغربة والحنين؛ فلم يخرجه ذلك إلى اليأس والقنوط، وتمسّك بحبل الرجاء والأمل، ولم يمنعه ذلك من التعبير عن مشاعر الشوق والحنين إلى الأهل والأولاد؛ فأكثر الشيخ سحنون من العبارات التي تفتح باب الأمل والرجاء، وتحمل دلالات نفسية ووجدانية عميقة، من ذلك (لا تدع حزنك، تجلّد، أن يسطع في الأفق سناها، وستلقاني فتنسى ...، في بلاد سوف تغدو جنة، فترقّب فجر يوم مشرق) وهي كلها عبارات كشفت عن مشاعر الحنين والشوق التي يحس بها الشاعر تجاه ابنه.

يعبر الشيخ سحنون عن شوقه لصديق له وقد باعدت بينهما المسافات البعيدة، وكلما تذكره فاضت مشاعره بالشوق والحنين، فيخاطبه بقوله (سحنون، 2007م، صفحة 297):

أَيُّهَا النَّازِحُ فِي أَرْضٍ بَعِيدَهْ لَسْتَ تَدْرِي أَنَّ آلَامِي شَدِيدَهْ
بَرُحَتْ بِي لَمْ تَدَعْ مِنْ عُمْرِي سَاعَةً وَاحِدَةً تَمْضِي سَعِيدَهْ
وَيْحَ نَفْسِي كُلَّمَا فَارَقَهَا مَنْ أَحَبَّتْ عَافَتِ الدُّنْيَا وَحِيدَهْ
وَيْحَ نَفْسِي قَدْ قَضَتْ أَيَّامَهَا مِنْ نَوَى أَحْبَابِهَا حَيْرَى شَدَيدَهْ
لَا رَعَى اللهُ الأَيَّامَ إِنَّهَا! أَبْعَدَتْ عَنِّي أَخاً أَهْوَى شُهُودُهْ
كَلَّ يَوْمٍ لِي بِذِكْرَاهُ أَسَى! كُلَّ يَوْمٍ لِي تَبَارِيحٌ جَدِيدَهْ!
أَيُّهَا الغَائِبُ عَنْ عَيْنِي وَفِي خَاطِرِي ذِكْرَاهُ لَمْ تَبْرُحْ نَشِيدَهْ

بدأ الشاعر بالنداء فقال (أيها النازح)، ولكنه لم يسمعه؛ فهو في أرض بعيدة عنه، ومع ذلك فالشاعر يخاطبه كأنه قريب منه، ويشكو إليه أحزانه وآلامه الشديدة ببعده عنه، ويظهر ذلك من خلال استخدامه لألفاظ وعبارات توحي بمشاعر الاشتياق والحنين، ومن ذلك(أيها النازح، ويح نفسي – كررها مرتين– فارقها من أحبت، حيرى شديدة، أبعدت عني أخا، لي بذكراه أسى ...)، وهي كلها لها دلالات وجدانية تعبر عن إحساس الشاعر وعواطفه تجاه صديقه الذي يحن إليه، ويعبّر عن ألمه وحسرته لفقدانه، ومع بعده منه إلا أنه حاظر في خاطره.

إن هذه الأبيات التي سقناها لهي تعكس حقيقة التجربة الشعرية عند الشيخ سحنون في غرض الغربة والحنين، وهو مثال عن توجه شعراء الفقهاء المعاصرين إلى التعبير عن مكنوناتهم الوجدانية والنفسية عند فقدهم للأهل والأصدقاء والأوطان، فجاء غرض الغربة والحنين معبّرا عن تجاربهم ومواقفهم.

6. خاتمة:

من خلال ما سقناه في موضوع التجربة الشعرية عند شعراء الفقهاء المعاصرين الشيخ أحمد سحنون أنموذجا يمكن أن نخلص إلى النتائج الآتية:

1– التجربة الشعرية عند الفقهاء تجربة ثريّة، يظهر ذلك جلّيا من خلال ما خلّفوه من نتاج شعريّ، وما طرقوه من مواضيع متعددة.

2– تتميز التجربة الشعرية عند الفقهاء بتأثرها بالمنهج القرآني، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وسير الصحابة والتابعين.

3- التجربة الشعرية عند الفقهاء – في غالبها- تجربة متكاملة، عكست ذات الشاعر الفقيه، وما يعيشه من تجارب وجدانية، واجتماعية وإنسانية ، وعبّرت بصدق عن مشاعرهم وأحاسيسهم ، وهو ما ظهر في البناء الجمالي والفني لقصائدهم.

4- التجربة الشعرية عند الفقهاء المعاصرين تجربة تعكس امتداد ظاهرة الشعراء الفقهاء من العصر النبوي وصولا إلى تاريخنا المعاصر.

5- كغيرهم من الشعراء؛ طرق فقهاء الشعراء المعاصرين جل أغراض الشعر، وعبروا عن تجاربهم الذاتية، ومواقفهم الإنسانية، وباحوا بمشاعرهم وأحاسيسهم.

6- التجربة الشعرية عند الكثير من شعراء الفقهاء المعاصرين تنبئ عن مقدرة فنيّة وإبداع جمالي متميّز.

7- طرق الشيخ سحنون جل الأغراض الشعرية، من مناجاة وشكوى، ومدح ورثاء، وفخر...، وكغيره من الشعراء الفقهاء المعاصرين أكثر من الأغراض الاسلامية، كالزهد والدعوة إلى الأخلاق...

8- ككل الفقهاء الشعراء تأثر الشيخ أحمد سحنون في تجربته الشعرية بالقرآن الكريم، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين والعلماء، والمتتبع لأشعاره يجد فيها الكثير من الألفاظ القرآنية.

9- التجربة الشعرية عند الشيخ سحنون تعتبر مثالا للتجربة الشعرية عند شعراء الفقهاء المعاصرين؛ من خلال ما طرقه من أغراض، وما عاشه من مواقف متعددة، انعكست على تجربته الشعرية

7- قائمة المراجع

1. أبو البراء. (26 01، 2006م). ترجمة علماء الجزائر الشيخ أحمد سحنون رحمه الله. تاريخ الاسترداد 24 06، 2022، من ملتقى اهل الحديث - المكتبة الشاملة الحديثة:

https://al-maktaba.org/book/31621/29121

2. أحمد الجدع. (27 حزيران، 2009). ظاهرة الشعراء الفقهاء، الشيخ السباعي نموذجا. تاريخ الاسترداد 24 05، 2021، من رابطة أدباء الشام:

https://www.odabasham.net/%D9%86%D9%82%D8%AF-%D8%A3%D8%AF%D8%A8%D9%8A/66899-%D8%B8%D8%A7%D9%87%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%82%D9%87%D8%A7

3. أحمد سحنون. (2007م). ديوان الشيخ أحمد سحنون (الإصدار 02، المجلدات 01-02). الجزائر: منشورات الحبر.
4. أحمد عبد اللطيف الجدع، و حسني أدهم جرّار. (1403هـ- 1983م). شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث (الإصدار 01، المجلد 09). بيروت: مؤسسة الرسالة.

5. أرشيبالد مكليش. (1963). التجربة والشعر. (سلمى الخضراء الجيوسي، المحرر) بيروت: دار اليقظة للطباعة والنشر والتوزيع.
6. السعيد الورقي. (بلا تاريخ). لغة الشعر العربي الحديث. الإسكندرية، مصر: مطبعة الجيزة.
7. أمال دحماني، و نور الهدى قطاش. (2019م). تشكيل الصورة في شعر أحمد سحنون. كلية الآداب واللغات، البويرة: جامعة آكلي محند أولحاج.
8. أول خير عمر عيسى سراج . (1415هـ-1994م). شعر الفقهاء في العصر العباسي الثاني (أطروحة دكتوراه). كلية اللغة العربية، مكة المكرمة، جامعة أم القرى.
9. حسني ناعسة. (1399هـ، 1997م). شعر الفقهاء نشأته وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الأول. حلب، سوريا: المكتبة العربية بحلب.
10. زينب علي حسين الموسوي. (2017م). الأنساق الثقافية في شعر الفقهاء (247- 656هـ) (أطروحة دكتوراه). كلية الآداب، القادسية العراق: جامعة القادسية.
11. شوقي ضيف. (2004م). في النقد الأدبي (الإصدار 9). القاهرة: دار المعارف.
12. عادل عبد الله أحمد حجازي. (1410هـ،1990م). شعر فقهاء المشرق من بداية عصر الخلفاء إلى نهاية العباسي الأول(أطروحة دكتوراه). كلية اللغة العربية، مكة المكرمة: جامعة أم القرى.
13. عبد الله كنون . (1966م). لوحات شعرية. تطوان، المغرب: دار كريماس للطباعة والنشر.
14. عبد الله كنون. (1435هـ - 2014م). أدب الفقهاء. بيروت: دار الكتب العلميّة.
15. عدنان حسين قاسم. (بلا تاريخ). التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية. القاهرة: الدار العربية للنشر والتوزيع.
16. علي الطنطاوي. (1988م). من غزل الفقهاء (الإصدار 01). جدة، المملكة العربية السعودية: دار المنارة للنشر والتوزيع.
17. علي بن البشير بلمسيل. (2021م). شعر الفقهاء في الأندلس -مكانتهم وروافد شعرهم -. مجلة مقامات، المجلد 05 العدد 01، الصفحات 331-340 .
18. محمد زكي العشماوي. (1979م). قضايا النقد الادبي بين القديم والحديث. بيروت: دار النهضة العربية للنشر والتوزيع.
19. محمد مرتاض. (1414هـ - 1994م). شعر الفقهاء في المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية (أطروحة دكتوراه). معهد اللغة العربية وآدابها، تلمسان: جامعة أبي بكر بلقايد.
20. محمود الربيعي. (1968م). في نقد الشعر. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
21. مصطفى السباعي. (1418هـ-1997م). هكذا علمتني الحياة (الإصدار 04). بيروت: المكتب الإسلامي.
22. يوسف القرضاوي. (1405هـ). نفحات ولفحات. (حسني أدهم جرّار، المحرر) بيروت: منشورات العصر الحديث.

الحواشي:

[1]- العلامة الشيخ الفقيه عبد الله كنون يمثل واحدا من رجال الحركة الإصلاحية بالمغرب الحديث دعوة وتعليما وجهادا ولد بمدينة فاس عام 1908م، ثم انتقل إلى طنجة، وبها تعلم وتفتحت مواهبه، وأدمن الكتابة في النثر والشعر وهو في سن مبكرة، وواصل دراسته بها، ثم تخرج من جامعة القرويين، تقلد الشيخ وضائف عدة؛ آخرها أمين عام لرابطة علماء = المغرب إلى أن توفي رحمه الله عام 1989م، مخلفا للخزانة العربية العديد من الكتب في مختلف الفنون الدينية والأدبية والسياسية وغيرها، انظر، العلامة المغربي عبد الله كنون أديبا مجددا، سعيد ساجد الكرواني، موقع الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، https://www.arrabita.ma/blog بتاريخ، 16\07\2022.

[2]- انظر، ترجمته في كتاب، شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، أحمد عبد اللطيف الجدع، حسني أدهم جرار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1403هـ- 1983م، ج09، ص121 وما بعدها.

[3]- الشيخ الدكتور مصطفى السباعي ولد سنة 1915م، في عائلة علم ودين، فسار على هذا النهج حتى تحصل على أعلى الدرجات العلمية، عرف الشيخ بدراساته الفقهية المعاصرة، والتي تعد من أهم المراجع عند المتخصصين. اجتمعت في الشيخ السباعي علوم شتى فقد كان فقيها عالما وداعية ومجاهدا ومؤلفا وشاعرا، وأهتم بقضايا الأمة مدافعا ومرشدا وخطيبا وموجها، مما تسبب له في مرض لازمه لسنوات، إلى أن توفاه الله عز وجل في عام 1964م، مخلفا العديد من الأعمال الفكرية والعلمية والشعرية، انظر، ظاهرة الفقهاء الشعراء، الشيخ السباعي انموذجا، أحمد الجدع، جريدة اللواء الأردنية، العدد 1425 ، 29 جمادى الآخرة 1421هـ، 27 أيلول 2000م. نقلا عن، موقع رابطة أدباء الشام، www.odabasham.net .